# الأسرة ووظيفتها الأخلاقية

بقلم

**الدكتور عبد العزيز عزت**

أستاذ علم الاجتماع المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد

تختلف وظيفة الأسرة الأخلاقية باختلاف تطور الأسرة ، لأن الأسرة لم تكن دائماً أبداً بالشكل الذى نراه اليوم فى الأمم الراقية ، وهو الشكل المزدوج الذى تقوم فيه الأسرة على الزوج والزوجة وأولادهما ما داموا يعيشون معهما .(١) وإنما تقدمت هذا الشكل الحديث أشكال أخرى أقدم منه . ويدل تطور هذه الأشكال على أن الأسرة ذهبت فى تطورها من الاتساع إلى الضيق وأنها كانت أكبر حجماً وأغزر كثافة من ناحية عدد أفرادها ، ثم أخذت فى الصغر حتى وصلت إلى الشكل المشار إليه . وأهم هذه الأشكال هى : الأسرة التوتمية ثم الأسرة الأبوية الكبيرة ثم الأسرة الأبوية الصغيرة ثم تأتى أخيراً الأسرة المزدوجة (٢).

وهذا التطور له أثره على وظائف الأسرة ، فهى أيضاً تطورت من الاتساع إلى الضيق فكانت متعددة فى الأشكال الاجتماعية القديمة ، والعكس صحيح بالنسبة للشكل الأخير (٣) . ولعل السبب فى تعدد هذه الوظائف قديماً فيما بين اقتصادية وتشريعية وسياسية وأخلاقية . . . الخ راجع إلى أن الأسرة كانت هيئة واحدة متشعبة النشاط الاجتماعى بينما فى المجتمعات الحديثة هى هيئة كسائر الهيئات الاجتماعية الأخرى فى المجتمع وأن هذه الهيئات سطت على وظائفها بناءً على تقدم قانون تقسيم العمل الذى يشير إليه دوركيم فى رسالته للدكتوراه ، والذى دعا إلى ارتقاء نواحى التخصص فى المجتمعات الكبيرة حتى أصبحت الوظائف المتعددة التى كانت

(١) Durkheim — Revue philosophique, Paris 1921, (Janvier-Février)., P. 2 à 4.

(٢) Davy — Sociologues d'hier et d'aujourd'hui, Paris 1931, chap. III.

وأيضاً الدكتور عبد الواحد وافى – الأسرة والمجتمع ، مصر ١٩٤٨ صفحة ١٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦ .

للأسرة ،ن اختصاص هيئات قائمة بذاتها . فمثلا الوظيفة السياسية أصبحت للدولة ، والتشريعية للبرلمان ، والقضائية للمحاكم ، والتربوية للمدارس . . . إلخ[١] . ولم يبق للأسرة فى عهدنا الحالى إلا وظيفة أساسية واحدة هى الوظيفة الأخلاقية[٢].

ويتضح مما تقدم أن الوظيفة الأخلاقية فى الأشكال القديمة للأسرة كانت واحدة ضمن وظائف أخرى متعددة ، بينما الآن هى الوظيفة الرئيسية الظاهرة الباقية لها . فما هى طبيعة هذه الوظيفة قديماً وحديثاً ؟

خضعت الوظيفة الأخلاقية فى الأشكال القديمة للأسرة للدين[٣] ، وانحصرت فى الغالب فى نوعين من الواجبات : واجبات أساسية تمس كيان الأسرة نفسها ، وواجبات أقل أهمية تتعلق بصلة الفرد بمن حوله فيها . أما عن الواجبات الأولى فيحددها دوركيم فى أربعة هى[٤] : أولا — واجب الانتقام من المعتدى على أحد أفراد الأسرة حتى تكون للأسرة هيبتها واحترامها . ثانياً — واجب احترام الملكية الجمعية فى الأسرة وعدم استغلالها استغلالا أنانياً بقصد به خدمة الصالح الخاص . والمحافظة على التركة الجمعية فيها ضد كل اعتداء . ثالثاً — واجب احترام الأسم الجمعى « Le Nous » الذى يحمله كل فرد فيها . فهو كالعلم الذى يميزه عن غيره ممن فى الأسر والعشائر الأخرى . وأن يتضامن مع أفراد أسرته لهذا السبب ، لأنهم جميعاً ينزلون من سبط أب واحد واجب تقديسه فى ذاته وفى ذاتهم أيضاً ، وهو فى العادة اسم له المسحة الدينية لأنه يمثل التوتم[٥] أحياناً وأحياناً أخرى يمثل أباً تاريخياً لا خرافياً وهذا فى الأسر الأبوية التى تقدس الأجداد[٦] . رابعاً — واجب احترام الدين فى الأسرة ، وذلك بالمساهمة الفعالة فى المواسم والأعياد والاحتفالات التى تقام فى المناسبات الدينية ، فهذه من الوسائل المهمة لربط الفرد بأسرته ، وتقوية الروح الاجتماعية عنده .

أما عن الواجبات التى تأتى فى المرتبة الثانية والخاصة بعلاقات الأفراد فى

---

(١) Durkheim — De la Division du travail social, Paris 1926, P. 184.
وأيضاً الدكتور عبد الواحد ، صفحات ٦ — ١٢ .

(٢) Durkheim — L'année Sociologique, T. I, P.P. 59 à 60.

(٣) Durkheim — L'année Sociologique, T. I, P. 2-3 + V. 82-121.

(٤) Durkheim — L'année Sociologique, I, I, P.P. 2 à 9, 39 à 40, 59 à 60.

(٥) Durkheim — L.A.S. I, I, P.P. 2 à 3.

(٦) Richard — La femme dans l'histoire, Paris 1906, P. 134.

محيط الأسرة فهى : أولا — واجب احترام الوالدين وإطاعتهما وعدم الخروج على إرادتيهما . ثانياً — واجب اشتراك أفراد الأسرة فيما يحصل عليه الفرد بمجهوده الخاص . فهو لا يعيش لنفسه وإنما هو مرتبط بغيره فى الأسرة . وأن الوجود الاجتماعى فيها عند الأقوام المتأخرة والتاريخية أقوى بكثير من الوجود الفردى ويطغى عليه . ثالثاً — واجب المعيشة فى سلام ووئام مع من حوله دون اعتداء أو إساءة أحد منهم . رابعاً — واجب عدم الاتصال غير شرعى من الناحية الجنسية بالنساء فى داخلية الأسرة . فالزنا محرم بين الأقارب . خامساً — واجب عدم سرقة الطعام فى داخل الأسرة . واحترام ما يأمر به رؤساء الأسرة بهذا الخصوص ، لأن الطعام يهمهم جميعاً والفرد يجب ألا يستأثر بنصيب الأسد بينما بنصور غيره جوعاً (١) .

وهذه الواجبات التى قال بها رجال الاجتماع فى فرنسا وفى غيرها تدل دلالة واضحة على خطأ نظرية التطور فى فهم الأخلاق(٢) . فالأخلاق عند الشعوب المتأخرة والتاريخية لم تكن منحطة بالدرجة التى يتصورها هربرت سبنسر وأنها بنيت على الصراع والنضال وأنها أخلاق « حربية » كما يصفها ، وبدرجة أن الإنسانية فى نظره لم ترتق أخلاقياً إلا فى العهود الحديثة عند ما سادت الأخلاق التى يسميها « بالصناعية » والتى قامت على التضامن والمحبة الإنسانية(٣) . ونحن لا نؤكد نظرياً وعلى طريقة الفلاسفة التجريديين أمثال كانت وكندرسيه وباكل ، أن الطبيعة الإنسانية واحدة فى كل زمان وفى كل مكان وأنها خيرة دائماً أبداً بفطرتها فهذا كلام فرضى لا يستسيغه العلم وعلم الاجتماع بوجه خاص(٤) . فى الواقع ليست الأخلاق فى الأشكال الأسرية القديمة بأخلاق مثالية تبغى الكمال المطلق أو الواجب فى ذاته كما يريد الفلاسفة ، وإنما هى أخلاق من طبيعة الأشكال الاجتماعية العامة للأسرة ، فهى أخلاق اجتماعية لا تبنى على الصراع كما أنها لا تبغى خلق قديسين وحكماء . فهى لا تنظر إلى الفرد فى ذاته وإنما تنظر إلى المجتمع وتماسك الأفراد فيه . فهى أخلاق ترمى — وكما يقول دوركيم — إلى خلق التضامن الآلى(٥)

(١) Muntsch & Spalding — Introductory Sociology, New York 1928, P. 97.

(٢) Ibid., P. 55, 62.

(٣) H. Spencer — Principles of ethics, vol. II, Part II, chap. X, P. 433.

(٤) Durkheim — Sociologie et philosophie, Paris 1924, P.P. 62, 63.

(٥) Durkheim — De la division du travail social, P. 155.

La solidarité mécanique فيما بين الأفراد وأسرهم وذلك بجعل العقل الفردى يخضع للعقل الجمعى[١] . وهذا العقل الجمعى ليس بحديث خرافة وإنما هو مجموع الواجبات الأسرية الأساسية والثانوية التى أشرنا إليها والتى هى فى نهاية الأمر تتركز فى العادات ونواحى العرف والتقاليد السائدة فى الأسرة[٢] .

أما فيما يتعلق بالأسرة المزدوجة فى العصر الحديث ، فانحصرت وظيفتها كما يذكر دوركيم فى الوظيفة الأخلاقية بوجه خاص ، فهى مدرسة للأخلاق . ولكن ما هى هذه الاخلاق الأسرية ؟

اختلفت وجهات النظر فى فهمها فمن المفكرين من بناها على الطبيعة الجسمية [٣] وأهم من يمثل هذا الاتجاه هو جان جاك روسّو ، فهو فى كتابه الأميل يقول باحترام السليقة والطبع عند الطفل وتركه يظهر من نفسه ميوله الذاتية ولا يهتم كثيراً بتعليمه تعليما عقليـاً وأخلاقياً . ذلك لأن التربية الفكرية والأخلاقية تأتى فى نظره فى المرتبة الثانية بالنسبة للتربية الجسمية[٤] . ولهذا كانت دائرتها مغلقة وتنحصر فى تعليم الجغرافيا والطبيعة والتجارة . . . إلخ[٥] وهذه معارف عملية ، فكأنه لا يؤمن كثيراً بالمعارف التى تخلق الفرد فكرياً وأخلاقياً كدراسة العلوم الفلسفية . كذلك ليست الأسرة فى حاجة إلى أن تعلم الطفل الأخلاق لأن روسّو يفترض أن الطبيعة البشرية خيّرة بفطرتها[٦] . ولهذا عاش الإنسان سعيداً فى حالة الفطرة وعاش شقياً فى حالة المدنية . ولهذا أيضاً هاجم روسّو العلوم والفنون والآداب وعرّض بالمدنية فى بحثه الذى قدمه إلى مجمع ديجون . وهذه نزعة لا يقرها علماء الاجتماع اليوم . لأنها نزعة فرضية وفردية ، ذلك لأنها بنيت على التجريد العقلى ورمت إلى تقويم الفرد فى ذاته ، بينما الاتجاه الاجتماعى فى التربية يقول بغير ذلك . فالتربية بوجه عام تمهد الفرد لتملأ وظيفة معينة فى المجتمع [٧] . والتربية الأخلاقية فى الأسرة بوجه خاص تربطه بأفراد أسرته داخلياً وبأفراد المجتمع خارجياً .

---

(١) الدكتور عبد الواحد ص ٢٢

(٢) Durkheim — Règles, P. 23 +

(٣) Durkheim — Division, P. 46.

(٤) Rousseau — L'Emile, L. I, II.

(٥) Rousseau Discours sur Inégalité, P. 169

(٦) Rousseau — L'Emile, L. III.

(٧) Rousseau — Discours, (les grands classiques illustrés) P. 17, 169, 176.

Durkheim — Division, Préf. 2e édition.

وهناك من بنى الأخلاق فى الأسرة على الفطرة النفسية ومثل هذا الاتجاه أوجست كونت . فهو يرى أن الفرد فى حد ذاته تتحكم فيه الغرائز ويميل بطبعه إلى الأنانية ولعل أهم هذه الغرائز المفسدة لأخلاق الفرد هى : الغريزة الجنسية — وغريزة حب البقاء وغريزة الطمع وعدم الاكتفاء . إلخ . ومهمة الأسرة هى ليست القضاء على هذه الغرائز لأنه لا سبيل إلى محو ما هو فطرى فى النفس وإنما مهمتها هى تحويلها إلى أهداف اجتماعية بحيث ينتقل الفرد من الأنانية إلى الغيرية . وبهذا تصبح الأسرة عاملا مهماً من عوامل الاستقرار الاجتماعى لأنها ستنشر روح الإخاء والسلام بين الناس فى المجتمع . لأن حياة المجتمع فى نظر كونت ما هى إلا انعكاس لحياة الأسرة الأخلاقية .

وتتجه التربية الأخلاقية فى الأسرة اتجاهين : الاتجاه الأول نحو الماضى فتربط الفرد بالتراث الاجتماعى القديم فينشأ محترماً للعادات والعرف والتقاليد معظماً للسلف ويأخذ عنهم . وهذا الاتجاه يقلم أظافر الأنانية فى الفرد ويربطه بقواعد السلوك التى أقرتها الأجيال السابقة . فتخلق عنده الطاعة واحترام الآباء والرؤساء وتصبح هذه الفضيلة عنده عادة يتبعها آلياً . أما الاتجاه الثانى ، فهو اتجاه نحو الحاضر مهمته تعليم الطفل التضامن مع من يعيش بين ظهرانيهم وذلك بخلق روح التعاطف والإخاء ومحاربة روح المنافسة والحسد والتحزب ، وبهذا تقوى الوحدة بين أفراد الأسرة وبين أفراد المجتمع بوجه عام[١] .

ولكن أراء أوجست كونت هذه تبدو غريبة بل ومتناقضة لأنه يرجع إلى الأساس النفسى فى الوقت الذى يهاجم فيه علم النفس ويحذفه من تصنيفه للعلوم[٢] ويجعل لعلم الاجتماع أهمية كبرى باعتباره أنه أول من فكر فيه من الأوربيين [٣] . وهذا جعل الغاية اجتماعية من التربية الأخلاقية فى الأسرة . ومع ذلك لا يفر علم الاجتماع الحديث هذا التناقض بالرجوع تارة إلى عناصر النفس وتارة أخرى إلى العناصر الاجتماعية . ويقول على عكس ذلك بأن تكون العناصر كلها سواء فى الأساس والهدف اجتماعية صرفة . وهذا يبنى هذا العلم وظيفة الأسرة الأخلاقية

(١) Comte — Système de politique positive, T. II, Paris, Crès, P.P. 183 à 187.

(٢) Comte — Cours, I, 2e Leçon, P. 47.

(٣) Comte — Cours, V, 52 Leçon, P. 7.

على أساس اجتماعي وعلى هدف اجتماعي كما سنرى . فالظواهر الاجتماعية يفسر بعضها بعضاً[١] ولا دخل للعناصر النفسية أو الحيوية أو الكونية فى فهم وتفسير طبائع الظواهر الاجتماعية والتى منها التربية الخلقية ، فى الأسرة . فهى من طبيعة خاصة ومستقلة وتخالف تمام المخالفة الطبائع الثلاث المشار إليها .

وهناك بعد ذلك من المفكرين الأوربيين من بنى الوظيفة الأخلاقية ، فى الأسرة على الدين وهم رجال الدين بوجه خاص وأهمهم فى العصر الحديث الكردينال فردينه Verdier رئيس أساقفة فرنسا السابق ، فهو يرى أن الوظيفة الأخلاقية للأسرة وظيفة شكلية وليست فعلية . لأن الذى يقوم بهذه الوظيفة خير قيام هى الكنيسة والمدارس الدينية ومهمة الآباء فى ذلك مهمة ثانوية هى السير وراء تعاليم الكنيسة الأخلاقية وغرسها فيهم عن طريق العطف والمحبة والتى تقوم بهذه المهمة فى الأسرة هى الأم ، إن ما تعلمه الكنيسة ومدارسها فى العادة للصغار هى المبادئ العامة التى يحتويها ما يسمى بال Catéchisme وهو كتاب صغير يلخص النواحى العامة التى فى الكتاب المقدس[٢] . ومن ضمن هذه النواحى الناحية الأخلاقية التى ترتكز على الواجبات المسيحية الكبرى وهى ثلاثة : واجب الإيمان وواجب الأمل وواجب الإحسان[٣] . ويقصد بالإيمان العقيدة الراسخة بأن الله خيّر ولا يمكن أن يفعل الشر أو يضلل الإنسان . ويقصد بالأمل التصديق المطلق بما وعد الله عباده الصالحين من ثواب فى الآخرة . ويقصد بالإحسان محبة الله لله ومحبة الجار والناس كمحبتنا لأنفسنا . وأهم هذه الواجبات هو بطبيعة الحال واجب الإحسان[٤] .

هذه الواجبات الدينية واجبات إنسانية لها أهميتها فى نفوس النشء ، ولهذا وجدت من المفكرين — غير الدينيين — من يؤيد تلقينها للصغار فى محيط الأسرة وبواسطة الأم وخاصة الأستاذ توما Thomas[٥] . ولكن دوركيم ليس من هذا الرأى فهو يريد هذه الوظيفة بعيدة عن الدين وأن تتخذ صفة القداسة الاجتماعية[٦]

---

(١) Durkheim — Règles, P. 117.

(٢) Sicard — Le livre de la famille et de l'école, 3e édition P. 275.

(٣) Catéchisme catholique (approbation de l'archevêque d'Utrecht, 1905) P. 129

(٤) Ibid., 130.

(٥) Thomas — L'éducation dans la famille (nos filles) Paris 1919, P.P. 53-57.

(٦) Durkheim — L.A.S., T. I, P.P. 59-60.

بخضوعها لفكرة الواجب مفهوماً على طريقته الاجتماعية لا على طريقة الفلاسفة النظريين وخاصة كانت[١] . وعلى الرغم من ذلك فإن بعض متبعيه فى فرنسا وفى خارج فرنسا لا يوافقونه فى رأيه وينصحون بإضافة التربية الدينية بجانب التربية الأخلاقية فى الأسرة ، منهم الأستاذ جوبلو Goblot[٢] . وأيضاً الأستاذ الدكتور عبد الواحد[٣] . وأنا أميل إلى الأخذ بهذا الاتجاه ، وذلك لأن الدين مظهر اجتماعى مهم ومن المسائل الفعالة لدعم الوجدان وبفضله يمكن مقاومة موجة الإباحة التى عمت بعد الحروب الحديثة ، ومحاربة طغيان الروح المادية التى نتجت عن الحضارة الصناعية القائمة ، ومقاومة سوء فهم مبادئ الحرية ، وسوء تطبيق مبادئها سياسياً مما قوى النزعة الفردية والحزبية بين الناس ، والقضاء على انعدام العدالة الاجتماعية بين الطبقات وعلى روح الاستغلال فيما بين الطبقات وفيما بين الأمم كذلك[٤] .

وهناك بعد ذلك من بنى الوظيفة الاجتماعية فى الأسرة الحديثة على أساس اجتماعى . ولعل الأساس المرفولوجى الخاص ببنية المجتمع هو الذى له الأهمية القصوى فى مدرسة دوركيم[٥] . غير أنه يختلف فى شكله فيما بين دوركيم وغيره من تلاميذه كجبلو . فيذهب دوركيم مثلا إلى أهمية حجم الأسرة ، ويريد بذلك كثافتها وبلغ عدد أفرادها[٦] . فكلما كبرت الأسرة واتسعت تأكدت الوظيفة الأخلاقية فيها ، وكلما صغرت وقل حجمها ضعف شأن هذه الوظيفة[٧] — فكثافتها تقوى الروح الأخلاقية وتزيد من الترابط بين أعضائها فيذكو الحس الاجتماعى عندهم ويشعرون أن هناك روحاً جمعية وعقلا كلياً يعلو عليهم[٨] ويضغط عليهم وله قداسته ويهابونه ويثير فى نفوسهم معنى الواجب ، ولكن الواجب هنا ليس له المعنى الفردى النظرى وأنه خاص بانسان عام لا يرتبط بأسرة معينة ولا بزمان ومكان معينين ، وهو ليس بواجب يشعر به الإنسان فى داخلية نفسه على طريقة كانت وأن عنده

(١) Durkheim — Sociologie et philosophie, P. 62, 63.

(٢) Goblot — La barrière et le niveau Paris 1925. P. 93.

(٣) الدكتور عبد الواحد — الأسرة والمجتمع — ص ٢١

(٤) Murry & Flynn — Social problems, New York 1964. P. 309.

(٥) Durkheim — Règles de la méthode sociologique, chap. IV.

(٦) Durkheim — Règles, P. 139.

(٧) Durkheim — Suicide, Paris 1902, P. 222.

(٨) Durkheim — A.S., T. I. P.P. 59-60.

بالفطرة . وإنما هو واجب اجتماعي مكتسب يأتي إلى الإنسان من محيطه الخارجي الذي يعيش فيه[١] . وخاصة من الأسرة ومن البيئة الاجتماعية . ويتمثل هذا الواجب في التضامن الواجب قيامه فيما بين الفرد والهيئة التي ولد فيها[٢] .

ولكن دوركيم يقف عند هذا الحد . وعند هذا الكلام العام ودون أن يخصص لنا الواجبات العملية التي يجب أن تقوم فيما بين أعضاء الأسرة فتربطهم وتحقق هذا التضامن والتماسك فيما بينهم . ولهذا سنوضح هذه النقطة التي تركها غامضة .

يميز دوركيم في كتابه عن الانتحار عند ما يعرض للعلاقة فيما بينه وبين الأسرة إلى الكلام عن عناصر الأسرة ، فيذكر أنها اثنان : أولا الآباء . ثانياً الأبناء[٣] . وبناءً على هذا التقسيم يمكننا أن نميز بين : أولا واجبات فيما بين الآباء . ثانياً واجبات فيما بين الأبناء . ثالثاً واجبات فيما بين الآباء والأبناء .

أما فيما يتعلق بواجبات الآباء نحو بعضهما فتنحصر في نظري في واجبات مشتركة وفي واجبات خاصة بكل منهما . الواجبات المشتركة هي : واجب الاحترام المتبادل فيما بينهما . فكثرة المخالطة وطول المعاشرة لا تمنع من قيامه وليس من الضروري أن يتخذ شكلا طنـــاناً له مراسم خاصة وإنما تكفي الإشارة في ذلك وخاصة بتجنب الألفاظ الغليظة والحركات الجارحـــة والنعوت الرخيصة وغير ذلك من عناصر الابتذال والتصغير[٤] وثاني هذه الواجبات الإخلاص وهو قيام المحبة وعدم خيانة أحدهما للآخر لأن زواجهما بني على تعاقد حر وعلى قبول كل منهما لأخيه بإرادته[٥] . وأخيراً هناك واجب المساعدة وهو العون الذي يقدمه كل منهما للآخر وهو لا ينحصر في المساعدة المادية وإنما أيضاً في المساعدة الروحية كبث روح الشجاعة والإقدام واحتمال صدمات الحياة بصدر رحب وغفران الأخطاء المتبادلة فيما بينهما .

أما عن الواجبات الخاصة بالزوج فهي الإقبال على العمل لدعم حياة الأسرة فالرجال قوامون على النساء والرجولة تأنف الاعتماد على دخل الزوجة أو كسبها ،

---

(١) Durkheim — Sociologie et philosophie, P.P. 59, 62, 63.

(٢) Durkheim — A.S., T. I, 59-60.

(٣) Durkheim — Suicide, P. 191.

(٤) Lemarié — La morale privée, Paris 1932, P. 29.

(٥) Ibid. P. 30.

ثم هناك واجب حماية الزوجة من الإغراء الخارجي وبالترويح عنها ومساعدتها بما يستلزم تشهيل إشرافها على الحياة المنزلية . فغرض الحماية إسعاد الزوجة واشعارها إنها ليست رقيقة وإنما سيدة فى المنزل[١] . أما عن واجبات الزوجة الخاصة فهى الطاعة مع احتفاظها بقدرها الإنسانى كى لا تنزل إلى الضعة ، وأيضاً واجب التدبير وعدم الإسراف والسعى وراء الكماليات ، فالضروريات ألزم ولا تكلف الزوج ما لا طاقة به[٢] .

أما عن واجبات الأبناء نحو بعضهم البعض فهى أيضاً إما مشتركة وإما خاصة . المشتركة تتلخص فى الاحترام والمحبة والوفاق . ونريد بالاحترام تقدير كل أخ لأخيه وأخته باعتبارهم أعضاء متضامنين فى الأسرة يبغون جميعاً هدفا واحداً هو رفاهيتها وسعادتها . لهذا وجب التعاون فيما بينهم للوصول إلى هذه الغاية فيطرحون وراءهم ظهرياً التنابذ والحسد والفرقة[٣] . بينما المحبة هى الصداقة الأخوية التى تبنى على المشاعر الصادقة الصادرة من القلب بحكم اشتراكهم . جميعاً فى نفس الذكريات والخطط والآمال وفى العادات والنزعات . فالأخوة هى الصداقة الطبيعية التى لا تبغى إلا وجه الصداقة دون نظر إلى فائدة أو أطماع أو أغراض معينة[٤] . أما الوفاق فينحصر فى اتباع توجيهات الوالدين لأنها تقيم عادة العدالة فيما بين الأبناء وأيضاً فى مقاومة كل أنانية وحسد وتهكم وتصغير لشأن بعضهم فهذه رذائل تسبب التشاحن فيما بينهم[٥] .

أما عن الواجب الخاص بالإخوة وخاصة إذا كانوا كباراً فهو إعطاء المثل الصالح لأخواتهم ورعايتهن وحمايتهن والتضحية من أجلهن[٦] . بينما واجب الأخوات هو العمل المنزلى فهو فضلاً عن أنه مفيد لأخواتهن فهو مفيد لهن لأنه يمهدهن ليكن زوجات ماهرات لا يعلقن بخيال الفراغ[٧] .

وهناك بعد ذلك واجبات الآباء نحو أبنائهم وتتلخص فى المراقبة والإصلاح

---

(١) Ibid., P.P. 31, 32.

(٢) Ibid., P. 32.

(٣) Ibid., P. 43.

(٤) Sicard — op. cit. P. 92.

(٥) Ibid. P. 93.

(٦) Ibid., 95-96.

(٧) Ibid., P.P. 229, 250.

والصرامة . المراقبة هي السهر على عادات الأطفال فى أفوالهم وأفعالهم وتوجيههم الوجهة الصحيحة الفاضلة فيها[١] . والإصلاح ينصب على مقاومة النزعات الأنانية[٢] . والصرامة هي الحزم فى معاملتهم لأن اللين مفسد لهم . والحزم يتطلب العدالة فى معاملة الأبناء دون تفضيل فيما بينهم فكلهم سواء[٣] .

أما عن واجبات الأبناء نحو آبائهم فهى الاحترام والطاعة والاعتراف ، بالفضل . الاحترام ليس بشيء خارجي يصدر فقط من الأقوال والأفعال وإنما هو شيء داخلي أيضاً يصدر عن القلب . فلا يتجه تفكيرهم إلى عيوب الآباء وسقطاتهم . والطاعة هي عدم مخالفة أوامر الآباء لأنها تصدر عن محبة وتقدير لصالح الأبناء . وهي لها فوائدها لأنها تقضي عند الطفل على عناده ونزواته وتقلل من رغباته وتعلمه قوة الإرادة فى مقاومة أطماعه وشهواته وكل هذه صفات لها أهميتها فى مستقبله . والاعتراف بالفضل لا يكون بالكلام وإنما بالأفعال وذلك بتقديم المساعدات الأدبية والمادية لهم عند الحاجة وخاصة فى مرضهم وشيخوختهم وعوزهم وفى أزماتهم العارضة[٤] .

ولعل أهم الواجبات الأسرية طرًّا هو واجب الاحترام ، فهو المحور الذى تدور حوله الوظيفة الأخلاقية فى الأسرة ، ولهذا عرف دوركيم الأسرة المعاصرة بأنها «مدرسة للاحترام المتبادل»[٥] . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن الاحترام يتضمن معنى الإلزام . وفيه تتمثل أهم صفات الظواهر الاجتماعية وهى صفة الضغط والجبر والتحتيم[٦] . ولسبب آخر هو أن دوركيم يضع أهمية كبرى للقانون فى تماسك الهيئات الاجتماعية ، والاحترام له هذه الصفة القانونية لأن القانون المدنى فى باب الأسرة ينص على وجوب قيام الاحترام بين أعضاء الأسرة وخاصة بين الأبناء والآباء[٧] . ولهذا إذا ضعف الاحترام فى داخلية الأسرة ذهبت هيبتها وضعفت

---

(١) Sicard, P.P. 62, 66.

(٢) Ibid., P. 66.

(٣) Ibid., P.P. 67-69.

(٤) Ibid., 80 - 84

(٥) Durkheim — A.S., T. I, 59 à 60.

(٦) Durkheim — Règles, P. 7.

(٧) Durkheim — Division, P. 29.

وحدتها ونزل عليها العقاب الاجتماعى فى شكل ازدراء الناس لأعضائها وربما أيضاً العقاب القانونى إذا أجرم أفرادها فى حق بعضهم البعض .

ومما تقدم نرى أن دوركيم اهتم بالواجب فى داخلية الأسرة ولم يوضحه كما فعلنا . وهناك جانب آخر لوظيفة الأسرة الأخلاقية هو الجانب الخارجى الذى يتعلق بصلات أفراد الأسرة بالمحيط الاجتماعى الذى يعيشون فيه . وهذا الجانب عرض له تلميذ من تلامذة دوركيم هو الاستاذ جوبلو Goblot ، وبناه أيضاً على أساس مرفولوجى هو الطبقة الاجتماعية ، والطبقة هنا هى الطبقة الراقية La bourgeoisie وهى بوجه عام طبقة تتوسط عادة بين الطبقة المفرطة فى الثروة وبين الطبقة الفقيرة . وإذا كانت قيمة طبقة كبار الأغنياء ترتكز على المال ، وطبقة الفقراء على العمل والتناسل ، فقيمة هذه الطبقة تأتى من الأخلاق فهى التى تمثل المستوى الأدبى الراقى فى المجتمع . وعنها فى هذا الباب تأخذ الطبقات الأخرى فهى مثلهم الأعلى .

وأهم الواجبات لمعاملة الغير فى خارج محيط الأسرة فى هذه الطبقة تنحصر فى نظر جوبلو فى ستة هى : واجب الشرف ، والأمانة ، والنبل ، والعمل ، والادخار والنظام [١] . وهى واجبات واضحة المعانى ولسنا فى حاجة لتعريفها لضيق المقام . والشىء المهم الذى يجب أن نعرفه هو أن الشرف أهمها طراً لأن أفراد طبقة البرجوازيه يعتدون بأنفسهم ويعتبرون أن لهم تاريخاً راعناً له احترامه من الآداب وحسن المعاملة فهم أساتذة الأخلاق بالنسبة لغيرهم فى المجتمع ، وقيمة الفرد تأتى من أخذه بأساليب التخلق عندها وبمعايير فضائلها [٢] .

وإذا تكلمنا إلى الآن عن الواجبات فى داخلية الأسرة وفى خارجيتها ، فيجب ألا ننسى ونحن فى ختام هـذا البحث أن نشير إلى أهم الرذائل فى الأسرة وهى فى نظرنا ثلاثة : الكذب [٣] ، والزنا [٤] ، والطلاق [٥] ، فهى العناصر الأساسية للفساد وانحلال الأسرة .

---

(١) Goblot — op. cit., P. 99.

(٢) Ibid., P. 102

(٣) Thomas — L'éducation dans la famille (nos fils) Paris 1919, chap. IV.

(٤) Goblot, P.P. 103, 105, 107, 109.

(٥) الدكتور عبد الواحد . Murry & Flynn, P. 254 +

أما بعد :

فوظيفة الأسرة الأخلاقية وظيفة اجتماعية فى أساسها وفى غرضها : ففى الجماعات القديمة كان أساسها الدين وغرضها خلق التضامن الآلى[١] . ويقصد دوركيم بالتضامن الآلى ترابط الفرد ترابطاً آلياً يخضع فيه خضوعاً مطلقاً يقضى على وجوده الذاتى ويكون كالآلة فى يد المجتمع يفعل به ما يشاء . بينما بنيت فى الجماعات الراقية على الكثافة وعلى التضامن العضوى[٢] . وهو تضامن يرتكز على أن الفرد عضو محترم له إرادته الحرة ويأخذ بالواجبات الأسرية على اختلافها باختياره . فهناك إذن ترابط لعضو له وجوده الذاتى فيما بينه وبين أسرته وفيما بينه وبين غيره من الناس فى محيط المجتمع .

ونلاحظ بعد ذلك أن هذه الوظيفة الأخلاقية للأسرة ليست وظيفة إنسانية ولا وظيفة شعبية[٣] . فهى لا تريد خلق حكماء وقديسين غايتهم بلوغ الكمال المطلق على طريقة أفلاطون قديماً وكانت حديثاً ، كما أنها ليست أخلاقاً عامية دارجة تسيطر عليها الحكم والأمثال والمعتقدات الشعبية والخرافات وغير ذلك من عناصر العادات والعرف وسنن المعاملات العامة[٤] . وإنما الأخلاق فى الأسرة وسط بين هذه وتلك أخلاق خاصة بطبقة معينة هى طبقة البرجوازيه[٥] . أخلاق تريد خلق الرجل الفاضل المؤدى واجباته خير قيام فى داخلية أسرته . والآخذ بأصول الأدب الرفيع مع غيره فى خارجيتها ، فهى أخلاق عملية لا نظرية ، وهى مكتسبة تأتى إلى الإنسان من محيط طبقته الراقية وتلزمه باتباعها[٦] . فهى أخلاق غرضها قريب يرمى إلى خلق احترام الفرد فى أعين من يعيش بين ظهرانييهم فيبدو مكرماً لما له من الشرف والقدر الاجتماعى[٧] .

عبد العزيز عزت

---

(١) Durkheim — Division, P. 155-157.

(٢) Ibid., Chap. II, P. 157.

(٣) Goblot, op. cit., P. 98.

(٤) انظر كتابنا — السلطة فى المجتمع — مصر ١٩٤٩ ص ٣٢ — ٤٢ .

(٥) Goblot, 99.

(٦) Ibid., 89.

(٧) Ibid., 91.